



# العلامة المرحوم علال الفاسي

## والتصوف الإسلامي في المغرب

يُعتبر كتاب «التصوف الإسلامي في المغرب» لمؤلفه علال الفاسي وثيقة تاريخية هامة، تنوّه برجالات التصوف وتشيد بدورهم في التأسيس لنهضة مغربية حقيقية وشاملة، كما يُعد من أهم الدراسات التي تجمع بين البعد الديني والحس الوطني للمغاربة عبر تاريخهم العريق.

بداية يذكّر المؤلف رحمه الله أن الحياة الروحية عند المسلمين نمت داخل المنظومة الإسلامية وليست وليدة تيارات دخيلة، وأن القائمين على الجانب الروحي في الإسلام عُرفوا في القرن الأول بالعبّاد، ثم أطلق عليهم اسم الزهاد، وأخيرا عُرفوا باسم الصوفية؛ كما عرفت طريقتهم باسم التصوف<sup>(2)</sup>.

الدراسة تُبرز من جهة ذلك البعد الروحي والأخلاقي في الإسلام، والذي يعتبر -على حدّ تعبير المؤلف- «ثمرة الإيمان والاقتناع بوجوب امتثال الأوامر الصادرة ممن له الخلق والأمر»<sup>(1)</sup>، وتبين مميزات الممارسة الصوفية في المغرب؛ إبانةً لمعالمها وأسسها، وعرضا لتاريخها وفعاليتها، وتنويعا بفضائلها وعطاءاتها.

نَبّه المؤلف إلى ادعاءات ومغالطات المحرفين لصفاء التصوف وهويته الأصيلة، حيث دحض مزاعم بعض الباحثين العرب، وبعض المستشرقين الذين يُرجعون التصوف إلى أصول دخيلة وغير إسلامية -حسب زعمهم-، مؤكداً أن التصوف الإسلامي بالمغرب كان دائما سنيا، مُستمدّا من مصادر إسلامية. كما أكد أن التصوف يمثل ذلك

«تطورت بعدُ في المدن إلى شكل زوايا تهتم بتعليم الدين وتربية المريدين، ويفد إليها الفقراء للإقامة فيها على شكل أهل الصفة»<sup>(5)</sup>.

وقسّم أدوار التصوف في المغرب إلى أربعة مراحل، مُبرزا أن جانب المجاهدة والتربية بالهمة والحال، والعناية بشؤون الخلق، والدفاع عن حمى الوطن ضد الأعداء، قد طغى على التصوف في المغرب منذ المرحلة الثانية (مرحلة الشاذلي)، وأشاد بالدور التحريري الذي قام به الصوفية في الدفاع عن المغرب من الاحتلال الأجنبي.

استعرض نماذج لبعض صوفية الحقائق التي ظهرت في أواخر العهد الثالث وفي العهد الرابع، وعزّا ذلك إلى هدوء الحال واطمئنان المغاربة على وطنهم بعد أن توّحد وتحرر بفضل الجهود التي بذلها الحكام العلويون، وإلى تجدد الاتصال بين رجال المغرب والمشرق وتبادل الرواية والاستمداد<sup>(6)</sup>، وأكد أن فكرة «الوحدة» عند الصوفية بعيدة كل البعد عن العقائد الفاسدة وعن الشريكيات، وإنها لها معنى آخر؛ في كونها رباط روحي بين المحب والمحبوب دون مزج للذوات؛ قال رحمه الله: «ومهما يكن موقفنا من هذه النظرة كسلفيين، فالذي لا نشك فيه أن الصوفية

التوق الهائل للاتصال بالملا الأعلى، وأنه منهجٌ من مناهج الإسلام وسُلّمٌ للنجاة معروفٌ ومسلوكٌ من النبي وصحابته الكرام.<sup>(3)</sup> وذلك في معرض حديثه عن بعض البدع التي أُلصقت بالتصوف، -وهو منها براء-، قال: «وإذا كانت ثمة منكرات أُدخلت على القوم، أو بدع تسربت إليهم، في حين أنها لا تتفق مع ما أرادوه لأنفسهم وللناس، فأى جماعة لم يندس فيها المبتدعون، أم أي عقيدة لم تلتصق بها طفيليات تحاول امتصاصها والقضاء عليها»<sup>(4)</sup>.

ثمّ أشار إلى أن الحركة الصوفية تبلورت في منهجين: منهج أبي زيد طيفور البسطامي الذي مثل صوفية الحقائق، ومنهج أبي القاسم الجنيد الممثل لصوفية الأخلاق والرفائق، والذي يتسم منهجه بتغليب جانب العمل وترك الخوض في حقائق القوم. وقد تبلور هذا الاتجاه الصوفي الأخلاقي بالمغرب في طريقتين هما: القادرية والشاذلية، ودخل في حظيرته الفقهاء والعلماء، وعامة الناس، وأثر بامتداداته العميقة في المجتمع المغربي، كما شكل دعامة من دعامات هويته الراسخة.

وأبرز انتشار الرباطات عبر التراب المغربي وأدوارها التي تقوم على العلم والتعبد والجهاد، التي

أبعد عن فكرة الوحدة التي تعني لاهوتية الكون أو الافراد كما هو الأمر عند النصارى، فالوحدة الصوفية معنى آخر، أي رباط صوفي بين المحب والمحبوب وليس مزجا للذوات أو تركيبا للأقانيم، ولذلك ينبغي أن نُعلن بصراحة عدم فهم ماسينيون وأمثاله من المستشرقين لكلام الحلاج وابن عربي<sup>(7)</sup>.

ونزّه عقيدة التصوف عن كل شريك أو شبهة أو نظير، وبيّن أصولها ومركزها في عقيدة التوحيد الإسلامي، قال رحمه الله: «والتكلمون يصلون إلى تحقيق ذلك (التوحيد) عن طريق البرهنة والاستدلال، أما الصوفية فيصلون إلى توحيد الله وتنزيهه من باب الوجد الصوفي، من المحبة التي توصلهم إلى الفناء، فيتجلّى لهم الحق في قلوبهم ويُعرّفهم بنفسه، فيهيّمون في جماله والتعلق به، ويعيشون في مقام الإحسان، ولا شك أن هذا الوجد الصادق أجمل وأقوى من كل برهان»<sup>(8)</sup>.

ولاحظ «أن معظم رجال التصوف المغاربة ودعاته كانوا من أهل العلم بأصول الدين وفروعه... وأن التصوف المغربي كان له الأثر الفعال، إلى جانب الفقه المالكي، في توجيه كل الأفكار والسياسات التي جرت في بلاد المغرب، فالفقه والتصوف عنصران

أساسيان في تكييف المجتمع المغربي وتسييره»<sup>(9)</sup>.

فالتصوف إذا عند علال الفاسي فلسفة أخلاقية شغلت حيزا كبيرا من الخطاب القرآني، تمحورت تعاليمه حول إصلاح النفس الإنسانية، وتنمية الحاجات الروحية، قصد إخلاص العبادة للمولى عز وجل ■

#### الهوامش:

- 1 - علال الفاسي: التصوف الإسلامي في المغرب، إعداد عبد الرحمن بن العربي الحريشي، مطبعة الرسالة، 1998 م، ص 6.
- 2 - نفس المرجع، ص 7.
- 3 - نفسه، ص 8-9.
- 4 - نفسه، ص 10.
- 5 - نفسه، ص 13.
- 6 - نفسه، ص 55.
- 7 - نفسه، ص 70.
- 8 - نفسه، ص 70-71.
- 9 - نفسه، ص 21.